إشكالية الهوية في الأدب المغاربي المكتوب باللغة الاجنبية

إنّ إشكالية اللغة الأجنبية(الفرنسية) في المغرب العربي لم تقتصر على مجال الأدب فقط، وإنما شملت الظروف التاريخية على اعتبارها من مخلفات المستعمر، والسياسية من منطلق الاستلاب الثقافي والتبعية الثقافية للمستعمر، والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية، والمعاملات الإدارية، ويشير الكاتب المغربي عبد السلام البقالي (شاعر و كاتب مغربي) إلى أن رغبة الفرنسيين هي الإبقاء على جذوة لغتهم وحضارتهم مشتعلة في دول المغرب العربي الذي أوشك على الإفلات منهم ثقافيًا، كما أفلت سياسيًا.

مفهوم الهوية:

الهوية من ناحية الدلالة اللغوية هي كلمة مركبة من ضمير الغائب" هو " مضافا إليه ياء النسبة،

لتدل الكلمة على ماهية الشخص أو" الشيء "كما هو في الواقع بخصائصه و مميزاته التي يُعرف بها، بناء على مقومات و خصائص معينة تمكن من معرفة صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشباه، فهي خصوصية فكرية، دينية، لغوية، تاريخية، ثقافية و قيمية تساهم في نحت ملامح هوية خاصة تختلف عن بقية الهويات الأخرى.

إن إشكالية الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية، أو كما يطلق عليه البعض "الأدب المفرنس"، أو "أدبنا الفرنسي"، ما تزال مطروحة بالساحة الثقافية المغاربية، ومثار نقاش مستمر حول تصنيفه ضمن الأدب المغاربي، أو ضمن الأدب الفرنسي، فكلا الطرفين يرفض ضم هذا الأدب إلى حظيرته، فهناك من النقاد المغاربة من يصنفه ضمن أدب الاستشراق، لأنه يلبي حاجة القارئ الغربي، و السائد أنّ بعض كتاب الروائية الاجتماعية كثيراً ما يجنحون إلى تقديم صور عن بلدانهم وكأنها عواصم الفساد المطلق والشر العميم، يشجعهم على ذلك استغلاظهم بلغة المتغلب، واستعدادهم الفطري، أو المكتسب لاتخاذ شتى ضروب التنصل الوطني والتبرج الإعلامي.

وهناك من يعتبره أدبًا مزدوج الهوية، لكونه يمزج في عمقه الهوية الغربية بالهوية المغاربية، ويتغذى من ثقافتين مختلفتين، ولا أثر لمضمونه عند الكتاب الأجانب، وهناك من يطلق عليه "الأدب المنبوذ" لأنه غير معترف به ضمن الأدب المغاربي من طرف بعض المغاربة، وغير معترف به ضمن الأدب الفرنسي من طرف الفرنسيين الذين اعتبروه أدبًا مترجمًا إلى الفرنسية، كما أطلقت الأوساط الفرنسية على الإبداع المغاربي "مدرسة شمال إفريقيا" كتيار من تيارات الأدب الفرنسي.

وفي هذا الصدد نعرض هذه
الآراء التي حاول من خلالها أصحابها تحديد هوية هذا الأدب:

يرى أحمد منور عن مسألة هويَّة الادب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أنّه إضافة للأدبين العربي الجزائري والفرنسي على السواء، ودم جديد أضاف لكليهما جِدَّة وحيوية وشباباً، وأعطاهما تجربة غنية وشديدة الثراء،

يقول الأديب جون سيناك " ("1926-
1973" :الكاتب الجزائري هو كل كاتب اختار أن ينتمي إلى الأمة الجزائر ية"، أمّا " جون ديجو Jean Dejeux " فيرى أنّ هذا الأدب: لا يخرج عن دائرة الكتاب المغاربة، على الرغم من تشبعه بالثقافة الغربية،

أما الكاتبة عايدة أديب بامية، فترى أن:
"الأدب الجزائري هو كل عمل أدبي مؤلف سواء باللغة العربية أو باللغة الفرن سية من قبل أي من سكان الجزائر الأصليين.

أمّا عبد الله الركيبي فيقف الموقف نفسه من هذا الأدب –
المكتوب باللغة الفرنسية مصرحا : " وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، قد وجد لظروف و أسباب في مرحلة معينة، و هو وإن كُتب بلغة أجنبية، فإنه عبر عن مضمون جزائري و واقع وطني الأمر

الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا ، كما يدعو الشاعر
العربي عبد المعطي حجازي إلى عدم نسب الأدب إلى اللغة التي كتب بها.

لقد بين الكاتب مالك حداد في أكثر من موقف
حقيقة الانتماء القومي للأدب الجزائري، و الذي لا
يُرَدُّ حسب رأيه إلى عنصر اللغة فحسب، و لا إلى مجرد عاطفة نكنها و

نقدس علاقتها بالموضوع، أو بالبلد، كافية لتحديد فعل الانتماء،

و إذا كان الكاتب الفرنسي "ألبير كامي" قد عبر قائلاً: "اللغة الفرنسية هي وطني" فإن الكاتب الجزائري "مالك حداد" عبر عن ذلك بقوله "اللغة الفرنسية هي منفاي" ، ويقول الطاهر بن جلون "لا مشكلة هوية لدي، إن لغتي هي الأدب ولا أشك في عروبة ما أكتب،

بينما يرى كاتب ياسين أنّ (اللغة الفرنسية غنيمة حرب) ليفت انتباه فرنسا وأعوانها بأن لغتها التي يتقنها بعض الجزائريين ستكون إلى جانب بقية أسلحة الثورة الأخرى في مواجهتها ومواجهة إدارتها وعسكرها ونخبتها من أجل تحقيق الاستقلال المنشود مواجهة فكرية وثقافية واضحة.

كما أن الكاتبين مولود معمري وكاتب ياسين، لا يشعران بحرج أو ازدواج في كتابتهما باللغة الفرنسية، ويعتبران إتقانهما لهذه اللغة إثراء للثقافة الجزائرية.يقول مولود فرعون: (أكتب بالفرنسية،وأتكلم بالفرنسية لأقول للفرنسيين أني لست فرنسياً).

وأضاف "ياسمينة خضرا" في حوار لصحيفة "الشرق الأوسط" اللندنية أنه "يكتب بالفرنسية لأنها لغته بالتبني، ولا يشعر فيها بالغربة، فبالنسبة له ليست اللغة تعبيراً عن الهوية، هي أداة العمل للتعبير والوصول للجمهور".

ومهما كانت مضامين الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية فإنه يظل جزءاً من تراثنا الأدبي المغاربي لأنه يتطرق من خلال هذه المضامين لعدة قضايا تهم القطر العربي بشكل عام، والمغرب العربي بشكل خاص، لذلك وجب ضمه إلى خزانة الأدب المغاربي، «وفي الحقيقة لم تعد المسألة رفض أو قبول هذا الأدب، لأنه أصبح الآن حقيقة ماثلة في تاريخنا، وجزءاً لا يتجزأ من الإبداع العربي، فالقيم الروحية العربية السائدة في أغلب هذه الكتابات واضحة على أن الوعي هو جزء من تاريخنا، وأن الاغتراب الثقافي لم يعد سلطة قائمة... لقد واكب الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، ورصد عهد الحماية وزمن الاستعمار ، وأصبح بذلك سجلاً للتاريخ السياسي والاجتماعي والفكري»، ولذلك وجب العناية بهذا الأدب من طرف الأوساط الثقافية المغاربية، واحتضان الكتابات الجديدة وتوجيهها لتلبية رغبة القارئ العربي، والاهتمام بالقضايا العربية.